أعلام العرب

٧٣

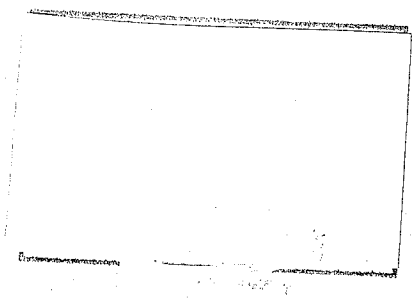

العزيز بالله الفاطمي

دكتور علي حسني الخربوطلي

وزارة الثقافة
مؤسسة التأليف والنشر
دار الكاتب العربي
القاهرة ـ ١٩٦٨

مقدمة

هذه هى أول دراسة لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ، وهو العزيز بالله سليل الأسرة الفاطمية المجيدة ، التى ينتهى نسبها الى السيدة فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى على ابن أبى طالب . والعزيز بالله ، هو خامس خلفاء الدولة الفاطمية ، وثانى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة . وهو ابن الخليفة المعز لدين الله الذى نجح فى تحقيق الحلم الكبير الذى كان يحلم به الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول ، وهو نقل الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر ، حتى ترث الدولة الفاطمية ممتلكات الدولة العباسية فى المشرق .

يجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله ، ويعتبرون عصره من أزهى العصور التى شهدتها مصر خاصة ، والعالم العربى عامة . وهم يمتدحونه فى أخلاقه ، وحكمته وسياسته ، وتسامحه ، ويعتبرون عهده هو أوج الدولة الفاطمية وذروة مجدها ويرون أنه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء . وكان اسم العزيز بالله يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، بل وفى بلاد العراق أحيانا ، وهى مركز الدولة العباسية . وأصبحت الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد العزيز بالله المنافس الخطير للخلافة العباسية المتداعية . وصارت الدولة الفاطمية أعظم الدول الاسلامية المعاصرة ، وموضع احترام وهيبة من جميع دول العالم فى الشرق وفى أوروبا ـ كما أصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية فى عهده .

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا عصر المعز لدين الله ، ويسلطوا عليه كثيرا من الأضواء ، باعتباره القائم بمشروع فتح مصر ، ومؤسس مدينة القاهرة ، ومنشىء الجامع الأزهر . وهم فى الحقيقة يجحدون فضل العزيز بالله . فالحقيقة التاريخية هى أن المعز لدين الله لم يحكم فى مصر سوى عامين ، ثم توفى تاركا الدولة الفاطمية لابنه الخليفة العزيز بالله ليكمل ما بدأه أبوه . ومن البديهى أن القاهرة لم تكن فى هذه السنوات القليلة قد اكتملت أو نمت ، فقام العزيز بالله باتمام مبانيها ، وعمل على تطورها ، حتى ظهرت القاهرة فى أواخر عهده فى صورتها الرائعة التى وصفها المؤرخون والرحالة الأقدمون . كما أن الخليفة المعز لدين الله قصر مهمة الجامع الأزهر على النواحى الدينية ، فعمل العزيز بالله على تطويره حتى أصبح جامعة علمية كبرى ، بمعنى الجامعة المعروف الآن ، وجعله معهدا عاليا للعلوم والفقـــه .

تطورت القاهرة فى عهد العزيز بالله تطورا كبيرا ، فلم تكن القاهرة فى عهد الخليفة المعز لدين الله سوى مكانا يقيم فيه الخليفة وحاشيته وجيشه . ثم أصبحت القاهرة فى عهد العزيز بالله مدينة عامرة ، تحفل بالمساجد ودور العلم وبالسكان والبيوت والأسواق والمرافق والحدائق .

أصبح عصر العزيز بالله هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية الذى بلغت فيه أوجها وذروتها . وأصبح لمصر فى عهده طابع خاص يميزه عن العهود التى سبقته ، وخاصة فى العصرين الطولونى والأخشيدى. واتسعت رقعة الدولة فى عهد العزيز بالله وفاقت فى اتساعها وعظمتها ما كانت عليه فى عصر أبيه المعز ، وساد الهدوء والسلام فى أرجاء الدولة ، وتمتع أهل الذمة بالتسامح والطمأنينة ، وظهرت أبهة الخلافة وعظمتها ، وزاد ثراء الدولة الى درجة كبيرة ، وأمـدنا المؤرخون الأقدمون بكثير من الصور والأمثلة لهذا الثراء والرخاء .

ويجمع المؤرخون على أن عصر العزيز بالله كان أكثر العصـور

التاريخية فى مصر تسامحا ، فقد أطلق الحرية فى المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، وساوى فى المعاملة بين العناصر المختلفة المقيمة فى مصر وسائر أقاليم الدولة الفاطمية وعمل على حفظ التوازن بينها ، فعاشت جميعها فى مجتمع واحد قوى متماسك . واستقرت الأحوال الداخلية تماما فى الدولة الفاطمية طوال عصره فلم تقم فتن أو ثورات .

وأضفى المؤرخون القدماء على العزيز بالله كثيرا من الصفات الشخصية الحميدة ، فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير ، وحب العلم والأدب ، فكان يجيد عدة لغات ويشجع العلماء والأدباء ، كما كان شاعرا مجيدا ، وأصبح عهده عصر نهضة أدبية وعلمية وفنية . وتميز العزيز بالله بالتسامح والعفو والكرم والشجاعة والاقدام وبالتقوى والورع .

ورغم هذه الصور المجيدة الباهرة التى شهدناها فى هـذه المقدمة الموجزة فلم يظهر بعد كتاب يدرس سيرة العزيز بالله ، ولذا رأينا أن نفى لهذا العلم العربى بحقه علينا ، نحن العرب ، فتكون سيرته حلقة فى سلسلة تراجم غيره من أعلام العـــرب البارزين . والله ولى التوفيق ؟

دكتور على حسنى الخربوطلى
أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
بجامعة عين شمس

فجر حياة العزيز بالله فى المغرب

كانت الدعوة العباسية فى أواخر العصر الأمـــوى الى البيت الهاشمى دون تخصيص ولذا تعاون العلويون والعباسيون ، وكلهم هاشميون ، للقضاء على عدوهم المشترك للدولة الأموية . ولكن العباسيين بعد فوزهم استبدوا بالسلطة دون العلويين ، ولذا بدأت مرحلة جديدة من صراع العلويين والعباسيين .

وفى العصر العباسى ، ظهر زعماء علويون بدأوا يحاولون انتزاع الخلافة من أبناء عمومتهم ، فكان أولهم جعفر الصادق ، حفيـــد الحسين بن على ، ونادى بانحصار الخلافة فى أولاد الحسين دون الحسن . وتعرف هذه الطائفة باسم (الامامية) وقد انقسمت هذه الطائفة بعد وفاة جعفر الصادق الى طائفتين . الأولى الأمامية الموسوية وهم الذين قالوا بأمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ويعتبرونه الامام السابع .

والطائفة الثانية الامامية الاسماعيلية ، ونادوا بامامة اسماعيل ابن جعفر الصادق باعتباره أكبر أولاده . وكان اسماعيل قد خلعه أبوه من الامامة وعين بدله موسى الكاظم ولكن الشيعة لم تعترف بما فعله جعفر الصـــادق . ولما توفى اسماعيل فى حيـــاة أبيه سنة ١٤٥ هـ رأى أتباعه أن الامامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق الى حفيده محمد بن اسماعيل طبقا لتعاليمهم التى تنص على أن الامامة لا تنقل من أخ الى أخ بل تكون فى الأعقاب ، وأصبح محمد هذا الامام السابع وأطلق على هذه الطائفة (السبعية) لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية .

كان الامام الثانى عشر من أعقاب موسى الكاظم هو محمد المنتظر ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم ، ودخل محمد هذا سردابا فى مدينة سامراء سنة ٢٦٠ هـ ولم يعد ، وانتظر أنصاره عودته ونادوا بأنه سيعود ليملأ الدنيا عدلا .

الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب :

تطورت الدعوة الشيعية تطورا سريعا ، وكان قيام الدولة الفاطمية النتيجة المباشرة الرئيسية لهذا التطور . فقد اتخذت الدعوة العلوية فى عصر الدولة العباسية شكلا سريا ، لينجو العلويون من اضطهاد العباسيين لهم ، وقالت طائفة الامامية بجواز استتار الامام اذا لم تكن له قوة يتغلب بها على أعدائه .

فى عهد الخليفة المأمون ، تتبع العباسيون الامام عبد الله الرضى ، فاضطر الى الهرب مع ابنه وولى عهده أحمد فتجول فى عدة بلاد حتى استقر فى قرية سلمية قرب حمص بالشام . وأصبحت هذه القرية مركز الدعوة الشيعية . واتخذ عبد الله الرضى ثم ابنه من بعده داعية يدعى ميمون القداح . وفى عهد الامام الحسين بن على اتسعت الدعوة الاسماعيلية فى الأقطار الاسلامية . نتيجة بذل الامام الأموال ، واهتمامه بتنظيم الدعوة وبث الدعاة .

وكان أشهر الدعاة ببلاد اليمن هو ابن حوشب الذى بنى حصنا جنوبى صنعاء وزحف منه على رأس جيش تمكن به من السيطرة على أجزاء كثيرة من بلاد اليمن . وبعث ابن حوشب دعاته الى اليمامة والبحرين والهند والسند ومصر والمغرب . وكان مبعوثاه الى المغرب أبا سفيان والحلوانى .

اختار الامام الحسين أحد دعاته الممتازين لينشر الدعوة الاسماعيلية فى المغرب ، وهو أبو عبد الله الشيعى ، وبعثه الى ابن حوشب باليمن لتدريبه سنة ٢٧٨ هـ ولما علم ابن حوشب بوفاة

أبى سفيان والحلوانى بالمغرب ، أمر أبا عبد الله الشيعى أن يكمل ما بدأه الداعيان ، وقال له : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك (١) .

خرج أبو عبد الله الشيعى من اليمن الى مكة زمن الحج ، والتقى بحجاج كتامة وامتزج بهم واكتسب صداقتهم ، وطلب أن يرافقهم فى طريق عودتهم الى بلاد المغرب زاعما أنه يريد مصر لطلب العلم ، واستطاع الكتاميون أن يقنعوا أبا عبد الله أن يصحبهم الى المغرب ، وهو ما كان يريده فعلا أبو عبد الله ، الذى أصبح المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية .

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الامام ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى فر من أيدى العباسيين فى موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ . وأقام الأدارسة فى المغرب الأقصى دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الاسماعيلية مما مهد الطريق أمام الدولة الفاطمية .

ولما قدم أبو عبد الله الشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة له كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ونفوسهم ، واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة الذين قامت دولتهم فى افريقية (تونس) على يد ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ . (٨٠٠ م) وظلت قائمة الى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ (٢) .

أعلن أبو عبد الله الشيعى لأهل كتامة غرضه الأصلى ، وأنه يكمل ما بدأه أبو سفيان والحلوانى ، وأنه البشير بالمهدى ، فالتفوا حوله

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٥ .

(٢) جمال سرور : مصر فى الدولة الفاطمية ص ٩ .